



سالم المشهور

# هوية الدولة وصراع المنظرين

منذ سقوط الخلافة العثمانية في عشرينيات القرن الماضي، بدأت تظهر في الوسط الإسلامي الكثير من الدعوات المطالبة بعودة الخلافة الإسلامية التي تمثل -من وجهة نظر هؤلاء- مظهراً من مظاهر بقاء الدين وخلوده. واستمرّ الجدل إلى يومنا هذا حول طبيعة علاقة الدين بالدولة؛ فهناك فريق اتخذ موقفاً معادياً أو رافضاً لوجود أي علاقة أو ارتباط بين الدين والدولة، وإن كان ارتباطاً شكلياً، وهناك فريق آخر تنكّر للواقع المعاصر وتبنى قراءة دينية متشددة فرضها على الدولة والمجتمع، وقدّم تجربة سياسية أدت لخلق صورة سيئة عن الإسلام في الخارج والداخل.

عمارة، وراشد الغنوشي. ويكاد يكون رأيهما رأياً واحداً، والسمة الأبرز لمقاربتهم أنها مقارنة توفيقية تحاول أن تجمع بين الحفاظ على ثوابت الدين والأخذ بقسط من الحداثة. فعلى سبيل المثال يرى عمارة أن السلطة الدينية التي تعني «أن يدعى إنسان يتولى منصباً دينياً أو سياسياً أو مؤسسة فكرية أو سياسية ما لنفسه صفة الحديث باسم الله وحق الانفراد لمعرفة رأي السماء وتفسيره»، هو رأي غريب على الفكر الإسلامي، فكل تيارات الفكر الإسلامي ومذاهبه تنكر وجود السلطة الدينية. وإذا كان عمارة لا يقر بوجود السلطة الدينية في الإسلام فهو كذلك يرفض أن تكون العلمانية هي الحل.

فنظرية عمارة في طبيعة علاقة الإسلام بالدولة تتلخص في إيمانه بأن الإسلام وضع القواعد العامة والأطر المرنة والقوانين الكلية، ثم أطلق للعقل والتجربة العنان ليضعا النظم والنظريات وفق المصلحة. ولعمارة نص آخر أورده الربيعو في مقاله هذا، يتعارض بعض الشيء مع ما تقدم من كلامه، وفيه يقول: إن الحاكم ما هو إلا منفذ للقانون الذي وضعه الفقهاء بالشورى والنظر في إطار كليات الدين، ومثله العليا ووصاياه العامة. والملاحظ هنا أن عمارة انتقل من مطلق العقل، إلى تقييده بعقل الفقهاء! ليقدم لنا تصوراً لما يمكن أن نسميه «ولاية الفقهاء» على غرار «ولاية الفقيه» في التجربة الإسلامية الإيرانية.

## ٦- دولة الله أم دولة المسلمين؟

ومن أهم الكتاب الذين يُحسبون على توجهات حداثية ولهم باع في المشاركة في التنظير لطبيعة علاقة الدين بالدولة «برهان غليون» الذي يذهب إلى أن «الإسلام لم يفكر بالدولة، ولا كانت قضية إقامة الدولة من مشاغله، لكن الدولة كانت دون شك أحد منتجاته الجانبية والحتمية»؛ فالدين -كما يرى غليون- هو روح الدولة التي ستصبح بدورها جسد الدين وسلاحه وذراعه -وربما يقصد غليون الدين في تطوره التاريخي- ثم يقول عبارة تستحق أن تكتب بماء الذهب -وبها سنختم هذا المقال: «إن الدولة الإسلامية لم تكن بحال دولة الله، بل دولة المسلمين بما هم كائنات بشرية قابلة للخطأ والصواب، وبما هم جماعة مدنية ذات مصالح متضاربة».



الشرعية والمؤلفات الإيديولوجية التي تتحدث عن الدولة كما يجب أن تكون، لا عن الدولة كما هي واقع. فهو يرى أن مقولة «الإسلام دين ودولة» تقوم على واد الربط الدال على التساكن بين الدين والدولة، وليس على الاندماج والانصهار، ويذهب إلى أن فكرة «الإسلام دين ودولة» نضجت في سياق تاريخي خاص، وهو بالتحديد فترة الاستعمار الغربي للمنطقة العربية، وهو يرى أن هذه الفكرة كانت ضرورية لاستنهاض الأمة في وجه المحتل الذي يريد الهيمنة على مقدرات الأمة وثرواتها. أما نظرية الدولة عنده فهي تتلخص فيما أسماه بـ«الدولة الحق» التي هي اجتماع وأخلاق، وقوة وإقناع ونظريته تقوم أيضاً على أن الدولة التي لا إيديولوجيا لها تتضمن درجة مناسبة من ولاء واجتماع مواطنيها. وبعبارة أخرى: إن نظرية الدولة عند العروى التي تربط الأخلاق بالسياسة والعدل بالتقدم، إنما هي دعوة للطبيعة مع الدولة المملوكية المستبدة والتأسيس للحرية، وبنفس الوقت تقوية الدولة باعتبارها أداة التقدم، شرط أن تكون الدولة بخدمة المجتمع وليس المجتمع بخدمة الدولة.

## ٥- نظرية الكتاب الإسلاميين المعاصرين:

أورد الكاتب في مقاله آراء حديثة في فقه ارتباط الدولة بالإسلام لكاتبين إسلاميين؛ وهما: محمد

وفي مقاله «الدولة في فكرنا العربي المعاصر»، تناول تركي علي الربيعو هذه القضية؛ من خلال تتبع صداها في كتابات مجموعة من أبرز الكتاب المعاصرين الذين خاضوا غمار هذه الأبحاث.

## ١- الدولة في فكر الشيخ علي عبد الرازق:

ذهب الشيخ علي عبد الرازق إلى رفض الرأي السائد في الأوساط العلمية والشعبية الذي يقول إن الإسلام دين ودولة، وخلصه نظريته -كما ذكرها صاحب المقال- تتمثل في النقاط الآتية: أولاً: ما كان محمد إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة. ثانياً: لم يقم صلى الله عليه وآله وسلم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم من هذه الكلمة ومرادفاتهما. ثالثاً: إن محمداً كإخوانه الخالين من الرسل الذين كانت مهمتهم التبليغ والإنذار.

ومن المعلوم أن هذا الاجتهاد الذي تبناه الشيخ عبدالرازق أثار غضب المؤسسة الدينية الرسمية في مصر؛ فتم عرض لسيل من الهجوم والنقد العنيف؛ فبعضهم كفره واكتفى آخرون بتضليله!

## ٢- نظرية الشيخ حسن البنا:

تتلخص نظرية البنا في قوله: «الإسلام عبادة وقيادة ودين ودولة وروحانية وعمل وصلوة وجهاد وطاعة وحكم ومصحف وسيف! لا ينفك واحد من هذين عن الآخر وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»؛ فالدولة من خلال آرائه يجب أن تكون إسلامية؛ بعبارة أخرى هي دولة الدعوة ودولة الرسالة؛ لأن «الدعوة أساس الدولة، والدولة حارس الدعوة، وهما معا قوام الحياة الإنسانية الصحيحة المستقيمة»؛ قد نتفق مع هذا الطرح وقد نختلف، ولكن هذا الطرح هو الذي ساد في أدبيات الأحزاب الإسلامية التي خاضت غمار العمل السياسي وكانت هذه الفكرة أحد أسباب الخوف الذي أبداه ويبداه باستمرار كثير من المهتمين بالعمل السياسي من بقية التيارات الفكرية.

## ٣- الدولة كافلة الدين:

على نقض غلاة الليبراليين الذين يذهبون إلى أن فصل الدين عن الدولة أحد شروط النهضة، يرى هشام جعيط أن الدولة يجب أن تكفل الدين وتحافظ على استمراره وليس من حقها أن تكون علمانية، فالدين الإسلامي -كما يرى جعيط- لم يكن ولن يكون مسألة خاصة،

إنه دين الأمة. قد يعترض بعض الإسلاميين على هذا الكلام ويقول: جعيط وأمثاله يريدون إسلاماً منزوع الدسم -لا تقام فيه الحدود ولا تقطع فيه الأيدي ولا يجرم الزناة وتباح فيه الخمر، ويقتصر الإسلام فيه على الشعائر والطقوس وقانون الأحوال الشخصية في أحسن الأحوال- وربما تكون بعض ملاحظات الإسلاميين هذه صحيحة، فكثير من العلمانيين نتيجة إيمانهم بتاريخية الدين أو بشرية يرون أن المدونة القانونية الإسلامية لا تناسب العصر، وإنما هي مجموعة من القوانين التي نزلت للإنسان العربي القديم الذي كان يسكن الخيام ويفتقد إلى أبسط صور المدنية.

ولجعيط عبارة أخرى في أحد كتبه ينادي فيه بضرورة بقاء الإسلام دين الدولة في عالمنا العربي، يقول: إن رأينا هو أنه يجب على الإسلام البقاء كدين للدولة، بمعنى أن الدولة تعترف به تاريخياً وتهبه حمايتها وضمانها.. ويضيف: ليس للدولة أن تكون علمانية بمعنى أنها لا تهتم بمصير الدين، مُعتبرة إياه مسألة خاصة. هل هذه مناورة من جعيط أم قناعة منه بضرورة إرضاء جماهير الأمة، كل هذه التأويلات وغيرها مُحتملة.

## ٤- نظرية الدولة عند العروى:

يرى عبدالله العروى أن القول بأن الإسلام دين ودولة ينتمي إلى الطوبى، إلى المؤلفات